الأدب المغربي الحديث

عدد خاص

تقديم العدد
بقلم الدكتور محمد برّادة

ترددت كثيرا قبل كتابة هذا التقديم ، لانني احترت في اختيار نقطة البداية وان كنت أعلم نقطة النهاية ، اي بداية البدايات بالنسبة لمجموع الانتاج الادبي في الوطن العربي : تحقيق التجاوز بما يجعل الادب عنصر صراع وتفاعل في الحقل الايديولوجي الواسع ، من غير ان يفقد مبرراته وقدراته وخصوصياته المنغرسة في اللحظة ـ التو ، والمستشرفة للآتي ـ المستمر .

ومصدر الحيرة هو ان الادب المغربي الحديث ، طفل لا يزال . يحبو بجراة الاطفال المشدودين الى اكتشاف جوهرية الحركة ، وينـدفع بجسارة من يسمي الاشياء لاول مرة . التقاليد ـ الممارسة من فوق تربته من منبت مغاير ، كانت تمنح من أجواء البلاغة التقليدية ، ومن الفقه وعلوم اللسان والتاريخ الحدثي .. وأدبه التقليدي يحجبه تفوق النموذج المشرقي والاندلسي ، وتؤطره مقولة كالشعار : لم ينبغ المغاربة في الادب طوال العصور الماضية .

وتستمر حلقات السلسلة : نتعرف على نهضة الشرق من خلال حركات معينة ، ويأتي الوجود الفرنسي في المغرب ليعرقل التواصل الحقيقي ، وليطمس بذور التأصيل والابداع ...

الآن فقط يبدأ ذلك الاعتقاد « بلا أدبية » المغرب يتزحزح ، لان القوى الاجتماعية الجماهيرية التي حققت الاستقلال أفرزت عناصر تؤطر الفكر والادب المنحدرين من تحول اجتماعي أساسي يتبنين في شكل فئات وطبقات .. الآن فقط تبدو « القطيعة » الاجتماعية فاعلة وممهدة للقطيعة الابستمولوجية .

تظهر قصائد جديدة منذ الستينات ، وقصص وروايات ومسرحيات ودراسات نقدية ، متفاوتة القيمة ومتباينة في مصادر الاستيحاء والتأثر او الاقتباس . شيء طبيعي . لكن اللافت للنظر ، هو ان المشروع الادبي في المغرب ، قبل وبعد الاستقلال ، لم ينشأ بتشجيع من الدولة . لا أقصد التشجيع المادي ، فهو لا يستطيع أن يخلق ادبا ، ولكن أقصد ان الالتباسات العديدة التي صاحبت « تشييد » الاستقلال ، جعلت الدولة تهمل هذا الادب ولا توفر له أدنى أسباب العيش . بل ان عناصر كثيرة ، في مقدمتها استمرار الحضور الفرنسي لغة وثقافة واقتصادا ، جعل وتيرة نمو هذا الادب الوليد بطيئة ، وحال دون انتظام ايقاعه .

طبيعي اذن ، أن تكون منابت الادب المغربي الحديث في أحضان الحركة الوطنية ثم الاحزاب السياسية على اختلاف اتجاهاتها . ومع ذلك فان شروط الانتاج بالنسبة لمجموع الادباء المغاربة الشباب تظل صعبة وقاسية : تمنحه بعض أسباب قوته من حيث الاقتراب من قضية الانسان المغربي والعربي على السواء ، لكنها تسجنه تحت وطأة أعباء عديدة في مقدمتها الطباعة على حساب

المؤلف ، والافتقار الى الحد المادي الادنى لاقامة علاقات منتظمة مع الجمهـــور ، والتعرض لمضايقات الرقابة أو لاستعداءات كلاب الحراسة ...

ان الذين بدأوا يكتبون باللغـة العربية أدبا جديدا في الخمسينات ، كـــانوا يستمدون الكثير من المشرق العربي .. وكان استمدادا مجتزئا ومفتقرا للفكر النقدي. لذلك فان ايجابيـــة هذا التأثر تنطوي عـلى الكثير مـن السلبيات التي طبعت الادب العربي الســائد في مصر وسوريا ولبنان والعراق منذ العشرينات من هذا القرن.. ولان « التفاوت » التاريخي بين الاقطـــار العربية حقيقة راجعة الى أسباب موضوعية ، فان منطلقات الادب المغربي في البداية كانت قائمـــة على تصورات مغلوطة أو مقلدة لم تستمر لحسن الحظ طويلا . ذلك ان الغليان السياسي والايديولوجي الذي عشناه منذ ١٩٦٥ ثم هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، اختصرت المسافة فنقلتنا الى بداية البدايات : اعادة النظر في مجمـــوع القيم بما فيها الكتابـة والفكر والممارسة . وقد ساهم الادب المغربي المكتوب بالفرنسية وكذلك المعرفـــة الاجنبية التقدميـة عبر متخرجينا من الجامعات الاوروبية ، في التمهيد لتقليب التربة وتأصيل الفكر النقدي ، باســـعاف وتحريض من واقـع موّار ، وشعب شاب يطمح لتأسيس قطيعـة سياسية ـ ثقافية مع الفكر القروسطوي .

لكن السؤال الـذي يفرض نفسه ولا أملك له جوابا في هذه العجـــالة ، هو : هل الخصوصيـة التاريخية للمغرب ، ولتطورات المجتمع العربي ، التي أتاحت نقل أدبائنا الى مرحـــلة متقدمة مـن طرح اشكاليات الادب العربي الجـــديد ، تنوب عن « ثقل » وخبرة الممارسة الادبية المكوّنة لتجربة الادب في الاقطار العربية الاخرى ؟

ان العشرين سنة الماضية من حياة الادب المغربي ، لا توازي ثقل التجربة السياسية الاجتماعية ذات الدينامية المتفجرة .. لا توازيهـــا اذا اشترطنا نوعا من المقاييس المتشددة ، وأغفلنا تشريح الشروط السوسيو ثقافية التي كان الادباء ينتجون فيها .. لكننا عندما نعتبر الادب ، في مجتمع تسوده الاميـــة مثل مجتمعنـــا ، عنصر صراع ايديولوجي شامل ، يكتسب ثقله من حيث قوته الرمزية اكثر مما يكتسبه من تأثيره الواسع ، فاننـــا سنجد ان الكثير من القصائد والقصص والدراسات ، تنسج معالم متميزة ، وأحيانا جريئـــة ، في حقل الكتابة والتخيّل والتفكير ..

في هذا الحقل الادبي المحـدود ، المحاصر ، المعذب بهموم وتمزقات وتطلعات كتّابه ، يحتدم حـوار لا ينتهي من خلال النصوص ، ثم بين أصحابها وقرائها أو المستمعين اليها . ان جمهورنا ، من خلال تجربتنا في اتحاد كتّاب المغرب ، هو أساسا من الشبـــاب (طلبة ، معلمـون ، أساتذة) المسيّس الذي لا يسمح للادب بأن يبتعد كثيرا عن الآني والمعاش ، لدرجة فرض نـوع من « الوصاية » أحيانا » في شكل تدخلات قاطعة تدين المحاولات التجريبية « الغامضة » أو المعقدة ..

لكننا نعلم جميعا ان الكاتب، بقدر ما تتوطد وشائجه بالابداع ، بقدر ما تتعمق التجربـــة وتحثّه على التحدي لبلورة معالم تتخلق ببطء في أحشـــاء الواقع .. صراع لا ينتهي . والادب المغربي يبـــدو في سباق عنيف مـع سرعة الدينامية المجتمعية التي تبـــدو أحيانا أسرع من قدرة الكتابـة على الالتقاط .. لكن قـــوة الادب المغربي (وضعفه ؟؟) تتجلى في المراهنة على الزمن الآتي بعد أن انفلت الزمن الهارب من بين أصابعه ..

ماذا يكون موقف الطفل المشدوه أمام تحولات كمية ونوعية تؤذن بحلول فصل الشباب والنضج ؟

انه يتذكر ان مرحـــلة الطفولة هي التـي يجب أن تكون أرضيـــة لاسس رجل المستقبل .. ومن ثم تلك المبادرة الى فتح النوافذ على مصراعيها لتعزف كل الالحان المتصلة بمرحلة المخاض :

المناهضة ، الرفض ، الجذور ، الاصالة ، السلفية، الماركسية ، الماركسية المتفتحـة ، الهويـــة ، المغايرة ، التاريخانية ، المعاصرة ، التراثية ...

ان تجربة الفكر والادب في المغرب تبدو مثيرة ..

وقد بدأ اخواننا في الشرق العربي يولونها اهتمامهم .. لكننا لا نود أن تجرف المجاملة الفكر النقدي . لا نريد تضخيم قيمة الادب الحديث في المغرب ، بل هو جزء من تجربة قومية لها خبرتها ورصيدها وانجازاتهـا الشكلية والمضمونية ، ومن ثم فان الكـاتب في المغرب لا يستطيع تجاهل تلك المنجزات ، وان كـــانت خصوصية الظروف والتجارب تبرر تميّز العوالم والرؤى ...

ان هذا العدد من « الآداب » الذي أشرف اتحـاد كتّاب المغرب على تحضيره ، لا يضم أفضل النصوص .. وقد كان بودنا أن تساهم أقلام أخرى لها قيمتها وانتظرنا ردها على ندائنا أمدا طويلا .. لذلك قررنا أن ننشر هذه المواد على اعتبار ان المساهمين لهم مسؤوليتهم الشخصية فيما ينشرون . وما نطمح اليه هو أن تكون هذه النماذج منطلقا لحـوار خصب مع زملائنا النقـــاد والمبدعين في المشرق الحبيب ، وبداية لأعداد أخرى تفك الحصار عن انتاج لا يستطيع الوصول الى كافة قراء الوطن العربي .

واخيرا ، هل من حاجـــة الى أن أشكر الدكتـور سهيل ادريس الذي عوّدنا عـــلى تقريب المسافات بين الاخوة المتباعدين ؟

محمد برادة